

تداولية الضمير في عودته إلى البعيد

د. حنان منصور أبو زيد محمد

المخلص

تعد التداولية درسًا غزيرًا وجديدًا في حقل الدراسات اللسانية، إذ أنها تختص بدراسة استعمال اللغة في سياق معين، وتهتم بالمعنى، وجاء هذا البحث ليتناول ظاهرة لغوية مثيرة للتأمل؛ هي عودة الضمير على غير الأقرب، وهي ظاهرة تخالف أصلًا لغويًا مشهورًا. وبهذا الصدد طرح البحث سؤالًا عن الجدوى النصية لهذا التجاوز الأسلوبي، وفي هذه السبيل سلك البحث منهجًا جمع بين الوصف والتحليل بغية معالجة مشكلة البحث والوقوف على أجوبة موضوعية لأسئلته، فبدأ البحث بذكر أهمية الموضوع والمنهج المتبع في البحث، وأهم أسباب اختيار الموضوع والدراسات السابقة، ثم تمهيد يشمل تعريفًا للتداولية ومفهوم الضمير وأغراضه وأحواله، ثم يتناول محاورين رئيسيين هما، الأول: عودة الضمير إلى الأقرب، والآخر: آراء النحاة وأهل اللغة في عودة الضمير، وينتهي البحث بخاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

Abstract

Pragmatics is a prolific and new lesson in the field of linguistic studies, as it specializes in the study of the use of language in a particular context, and is interested in meaning, and this research came to address a linguistic phenomenon exciting reflection; is the return of the pronoun to the non-closest, a phenomenon contrary to the origin of the famous linguist

In this regard, the research posed a question about the textual feasibility of this stylistic transgression, and in this way the research took an approach that combined description and analysis in order to address the problem of research and stand on objective answers to its questions.

The research began by mentioning the importance of the subject and the approach used in the research, The most important reasons for choosing the topic, then a preamble that includes a definition of deliberative and the concept of conscience and its purposes and conditions, and previous studies and then deals with two main axes, the first: the return of the conscience to the closest, and the other: The views of grammarians and linguists in the return of conscience, and the research ends with a conclusion that includes the most important findings of the research.

المقدمة:

يمتدّ الدرس التداولي على مساحات واسعة ومختلفة، بما يجعله حقلاً يركّز في مناطق متداخلة من علم الدلالة وعلم النحو، فالارتباط وثيق بين محاور هذين العلمين، لكننا نجد أنّ المحور التداولي يولي العلاقة بين التراكيب النحوية أهمية كما يُعني بالمقام مباشرةً، أما المحور الدلالي فيدرس أولاً الصلات بين الرموز اللغوية ومسمياتها، وهو فضلاً عن ذلك يلتفت إلى المقام، لكنه لا يُعني بتفاصيل القول فيه، تاركاً عبء ذلك على التداولية.

اشتملت على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهج البحث، والدراسات السابقة ، وحدود البحث .

وعن أهمية البحث:

تظهر أهمية الموضوع في أن معرفة القواعد هي السبيل لضبط الفروع؛ وذلك لأن الفكر الإنساني بشكل عام لا يبلغ نضجه إلا إذا انتقل م نالمعالجة الجزئية المفككة للمسائل، إلى النظر الكلي المنهجي الذي يصوغ من الجزئيات بناءً متكاملًا، كما يُلاحظ القارئ في كتب التفسير كثرة الأقوال.

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يجمع بين التركيب والدلالة، ويجمع بين علمي النحو والدلالة ، ليكشف عن المدلول المعنوي الذي تفصح عنه قرائن السياق.

أسباب اختيار الموضوع:

- ١-محاولة معرفة الأسباب التي تخالف القاعدة الأصل .
- ٢-دراسة هذه الأسباب وتقعيد النحاة وعلماء اللغة لها ، ومدى صحة هذه المخالفة للقاعدة.

الدراسات السابقة :

- ١- بحث بعنوان:"عودة الضمير وأثره في توجيه الدلالة القرآنية" لـ ندى شعلان موحان، جامعة بغداد،سنة النشر ٢٠٢٢م.
- ٢- بحث بعنوان"الاستثناء في قاعدة عودة الضمير دراسة نظرية تطبيقية"، لـ عبد الرحمن عبد الله أحمد الغامدي، جامعة نجران ،المملكة العربية السعودية، العدد ٢١،سنة النشر ٢٠٢٤م

أهداف البحث:

- ١- جمع الشواهد القرآنية التي تنطق عليها مخالفة القاعدة .
- ٢-دراسة هذه الشواهد وبيان مدى مطابقتها لمخالفة القاعدة الأصلية .
- ٣-الاستعانة بآراء علماء النحو واللغة وما يثبت صحة مخالفة القاعدة .

حدود البحث:

هذا البحث – إن شاء الله تعالى – يركز على قاعدة أساسية وهي:
- الأصل إعادة الضمير إلى أقرب مذكور ما لم يرد دليل بخلافه.

_منهج البحث:

اعتمد البحث_ بعد عون الله وتوفيقه_ على المنهج الوصفي التحليلي ، مع مراعاة ما يلي:

- ١-ذكر القاعدة، مع الإفادة من كلام أهل العلم خصوصًا ما جاء في كتب النحو واللغة.
- ٢-ضبط الشواهد والأبيات وعزوها لقائلها ما أمكن ذلك.
- ٣-التعريف بالأعلام المغمورين.

*الكلمات المفتاحية: (تعريف التداولية – مفهوم الضمير "لغةً واصطلاحًا" – عودة الضمير).

خطة البحث:

اقتضت خطة البحث أن تكون: مقدمة وتمهيد ومحورين على النحو التالي:

التمهيد: يشمل على :

المطلب الأول: التداولية: لغةً واصطلاحًا.

المطلب الأول: تعريف الضمير وأنواعه وأحواله وأغراضه.

المحور الأول: عودة الضمير إلى الأقرب.

المحور الثاني: آراء النحاة وعلماء اللغة في مرجع الضمير.

الخاتمة: تتضمن ما توصل إليه الباحث من نتائج وتوصيات.

التمهيد النظري:

أولاً: تعريف التداولية

✓ أولاً: لغة:

لقد وردت مادة (دَوَل) في كتا مقاييس اللغة "أحدهما يدل على تحول شيء من مكان إلى آخر، والآخر يدل على ضعف واسترخاء، فقال أهل اللغة: أندال القوم، إذا تحولوا من مكان إلى مكان، تداول القوم شيء بينهم: إذا مار من بعضهم إلى بعض، الدَّولة والدَّولة لغتان، ويقال بلُ الدَّولة في المال والدولة في الحرب وسيما بذلك من قياس الباب لأنه أمر يتداولونه فيتحول من هذا إلى ذلك إلى هذا"^(١).

ويرجع مصطلح التداولية في أصله الغربي إلى الجذر اللغوي (دَوَل) وله معاني مختلفة لكنها لا تخرج عن معاني التحول والتبديل، فقد ورد في معجم "أساس البلاغة للزمخشري": ((دَوَل دالت له الدولة ودالت الأيام بكذا، وادال الله بني فلان منعوهم، جعل الكثرة لهم عليه، واديل المؤمنون على المشركين يوم بدر واديل المشركون على المسلمين يوم أحد، والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم والدهر دول وعقب ونوب، وتداول الشيء بينهم والماشي يداول بين قدميه، يراوح بينهما)^(٢).

اصطلاحاً:

مصطلح التداولية له درجة من الغموض إذ يقترن به في اللغة الفرنسية المعنيان التاليان: "محسوس" و "ملائم للحقيقة"، في الانجليزية وهي اللغة التي كتبت بها أغلب النصوص المؤسسة للتداولية، فإن كلمة (pragmatic) تدل في الغالب على " ما له علاقة بالاعمال والوقائع الحقيقية" ، وهكذا أن الحقل الذي فتحه هذا الاختصاص العلمي المسمى تداولية، ضخم، وتُلَقَّى فيه الأعمال الهامشية التي لا تنتمي إلى الاختصاصات المؤسسية وهي اللسانيات وعلم اجتماع والانتربولوجيا وعلم النفس الاجتماعي والدلالية... إلخ"^(٣)

(١) مقاييس اللغة : لابن فارس ، تحقيق وضبط، محمد هارون، دار الجيل، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص٣١٤.

(٢) أساس البلاغة، لـ الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ص٣٠٣

(٣) التداولية من اوستين إلى غوفمان، لـ فيليب بلانشية ، تر: صابر الحباشية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ص١٧.

وعرف مصطلح التداولية (pragmatique) مدلولات عديدة، فقد ظهر مصطلح pragmatique انطلاقًا من الأصل اليوناني "pragma" الذي يعنى العمل (action) ومنه اشتقت الصفة اليونانية (pragmatikis) التي تحيل على كل ما يتعلق بمعاني العمل، وابتداءً من القرن ١٧م تعني كل بحث أو اكتشاف من شأنه أن يعرف لا يفضي إلى تطبيقات ذات ثمارًا علمية^(١).

ويعود مصطلح التداولية إلى الفيلسوف تشارلز موريس انطلاقًا من عنايته بتحديد الإطار العام لعلم العلامات أو السيميائية من خلال تمييزه بين ثلاثة فروع وهي: النحو أو التراكيب Syntax وهو: دراسة العلاقة الشكلية بين العلامات بعضها البعض.

- الثاني الدلالة Semantic وهي: دراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.

- الثالث التداولية Pragmatics وهي: دراسة علاقة العلامات بمستعملها وبمؤوليها.

تعود كلمة (التداولية) في أصلها الأجنبيّ pragmatique إلى الكلمة اللاتينية pragmatic us التي استعملت عام ١٤٤٠م، وتتكون من الجذر pragma ومعناه الفعل Action^(٢)، ثم دخلت اللغة فاكتملت اصطلاحًا لسانيًا دلالة جديدة، يعني ذلك الاهتمام المنصب على مستوى لغويّ خاص، يهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالسياق الاجتماعيّ (المرجعّي) لعملية التخاطب، وبالأفراد الذين تجري عملية التواصل بينهم^(٤).

(١) تجليات مفاهيم التداولية في التراث العربي، عبد الرحمن بشلاغم، رسالة ماجستير، ٢٠١٤م، ٢٠١٣م، ص ٣٥

(٢) استراتيجية الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص ٢١

(3) Maxidico , Dictionnaire encyclopedique de la langue Francoise , edition de la co naissance 1997 , p 876

(٤) ينظر، نفسه

ويعود الفضل في إنشاء هذه العلاقة الثلاثية بين النحو والدلالة والتداولية إلى الفيلسوف الأمريكي موريس^(١) C.Morris في كتابه الذي نشره سنة ١٩٣٨ بعنوان: أسس نظرية العلامات اللغوية foundations of the theory of Signs، إذ أشار فيه إلى أهمية دراسة (مايصنعه) المتكلم بوساطة اللغة.

يمتد درس التداولي على مساحات واسعة ومختلفة، بما يجعله حقلاً يركز في مناطق متداخلة من علم الدلالة وعلم النحو، فالارتباط وثيق بين محاور هذين العلمين، لكننا نجد أن المحور التداولي يولي العلاقة بين التراكيب النحوية أهمية كما يُعني بالمقام مباشرة، أما المحور الدلالي فيدرس أولاً الصلات بين الرموز اللغوية ومسمياتها، وهو فضلاً عن ذلك يلتفت إلى المقام، لكنه لا يُعني بتفاصيل القول فيه، تاركاً عبء ذلك على التداولية^(٢).

وتتلخص اتجاهات البحث التداولي فيما يأتي^(٣):

١- تقوم التداولية على دراسة الاستعمال اللغوي أو هي علم الاستعمال اللغوي، وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذي يولد المعنى.

٢- تُعدُّ التداولية حلقة الوصل بين العلوم ذات الصلة بوصفها الوسطة بينها وبين لسانيات الثروة اللغوية.

ومما تقدم تُعدُّ وظيفة التداولية إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، ومعرفة القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، فتصبح التداولية بحق علم الاستعمال اللغوي^(٤).

(١) ومؤسس المنهج الفلسفي الحديث (البرغماتية)، أو ما يطلق عليها التداولية (شبكة الإنترنت، موقع اللسانيات العربية) شارل موريس (١٨٣٩-١٩١٤م) عالم فلك أمريكي صاحب نظرية السيموطيقية،

(٢) التراكيب الإعلامية في اللغة العربية، د. حنان إسماعيل عميره، دار وائل للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٦م، ص٥٧

(٣) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦م، ص٩-١٠

(٤) ينظر: علم اللغة الحديث، د. محمد حسين عبد العزيز، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، (١٤٢٢هـ - ٢٠١١م)، ص٣٤٥

ثانياً: الضمير تعريفه وأنواعه وأحواله وأغراضه :

الضمير لغةً: مادة ضمير جذر لغوي يشتق منه كلمات ذات دلالات لغوية كثيرة، وقد أوردت المعاجم العربية معاني لغوية لما يتفرغ من هذه المادة، وسوف أقف على بعضها تمهيداً للتعريف الاصطلاحي الذي سيبنى على دلالته هذا البحث.

فَضَمَرَ الْفَرَسَ ضَمُورًا مِنْ بَابِ قَعَدَ، وَضَمَّرَ ضَمْرًا مِثْلَ قَرَبٍ قَرَبًا دَقَّ وَقَلَّ لَحْمَهُ، وَضَمَّرْتُهُ أَعَدَدْتَهُ لِلْسَبَاقِ، وَهُوَ أَنْ تَعْلَفَهُ قَوْلًا بَعْدَ السَّمَنِ، فَهُوَ ضَامِرٌ، وَخَيْلٌ ضَامِرَةٌ، وَضَوَامِرٌ وَالْمِضْمَارُ الْمَوْضِعُ الَّذِي تَضَمَّرُ فِيهِ الْخَيْلُ.

وضمير الإنسان قلبه وباطنه، والجمع ضمائر، على التشبيه بسريرة وسرائر؛ لأن باب فعيل إذا كان اسماً لمذكر يجمع كجمع رَغِيفٍ وَأَرْغِفَةٍ وَأَرْغَفَانَ، وَأَضَمَّرَ فِي ضَمِيرِهِ شَيْئًا؛ عَزَمَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ^(١)

والضمير: السرّ وداخل الخاطر والجمع الضمائر، وَأَضَمَّرْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتَهُ وَالضَّمَارُ مِنَ الدَّيْنِ: مَا كَانَ بِلَا أَجَلٍ مَعْلُومٍ... قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ^(٢) الْمَالُ الضَّمَارُ هُوَ الْغَائِبُ الَّذِي لَا يُرْجَى^(٣) " وَالضَّمَارُ: (مَكَانٌ) أَوْ وَادٍ مَنخُضٌ يَضْمُرُ السَّائِرَ فِيهِ"^(٤) .

أما في الاصطلاح عرفه ابن الحاجب بقوله: " المضمّر: ما وضع لمتكلم، أو مخاطب، أو غائب تقدّم ذكره لفظاً أو معنى أو حكماً"^(٥)

فالمضمّر والضمير، اسمان لما وضع لمتكلم كأنا، أو لمخاطب كأنت، أو لغائب كهو، أو لمخاطب تارة ولغائب أخرى، وهو الألف والواو والنون، كقوما وقاما، وقوموا وقاموا، وقمن. يسميه البصريون الضمير، والكوفيون يقولون الكناية والمكني^(٦).

(١) المصباح المنير، للفيومي، كتاب: الضاد، مادة: ضمير (ص: ١٨٨) . "والضمير بسكون الميم وضمها الهزال وخفة اللحم..." (مختار الصحاح، للرازي، باب: الضاد، مادة: ضمير) (ص: ١٨٥)

(٢) هو القاسم بن سلام إمام أهل عصره في كل فن من العلم، أخذ عن أبي زيد، وأبي عبيد والأصمعي، من تصانيفه: الغريب المصنف، غريب القرآن، الأمثال السائرة، أئمة النحو واللغة (ص: ٢٣٣).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور، فصل الضاد المعجمية، مادة: ضمير (4/493)

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي (12/404)

(٥) الكافية في علم النحو لابن الحاجب (ص: ٣٢)

(٦) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي (١/٢٢٣)

والنحاة يقولون إنما سمي بذلك لكثرة استتاره، فاطلاقه على البارز توسع، أو لعدم صراحته كالأسماء المظهرة.^(١)

جاء في (التصريح): " المضمّر اسم مفعول، من أضمرته إذا أخفيته وسترته وإطلاقه على البارز توسع. والضمير بمعنى المضمّر على حد قولهم (عقد العسل فهو عقيد) أي معقود. وهو اصطلاح بصري والكوفية يسمونه كناية ومكنيا، لأنه ليس باسم صريح والكناية تقابل الصريح قال ابن هانيء^(٢) :

فصرح بمن تهوى ودعني من الكنى ... فلا خير في اللذات من دونها ستر^(٣)

والثاني: هو الراجح فيما أرى، وذلك لأنك بالضمير تستر الاسم الصريح، فلا تذكره فإنك إذا قلت (أنا)، فأنت لم تذكر اسمك وإنما سترته بهذه اللفظة، وكذا إذا قلت (أنت وهو وهي)، ألا ترى أنك تطرق على أحد بابيه فيقول: من؟ فتقول: أنا، ويقول لك: ومن أنك؟ فتقول له: فلان. فأنت لم تذكر اسمك صراحة بقولك (أنا)، فطلب منك ذكر اسمك الصريح. فأخذ مصطلح الضمير من هذا لأنه يستر به الاسم الصريح.

والضمير مصطلح بصري، ويسميه الكوفيون كناية، ومكنيا، وهو بالمعنى نفسه، فإن الكناية تقابل التصريح، ومنه قولهم استعارة تصريحية، واستعارة مكنية، فالتصريحية ما صرح فيها بلفظ المشبه به، والمكنية، ما كني فيها لفظ المشبه به أي ما ستر وأخفى. ومنه الكنية في العلم لأنها تستر الاسم الصريح، والكناية في الكلام أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره.^(٤)

(١) انظر التصريح ٩٥ / ١، شرح شذور الذهب ١٧٧

(٢) تخريج: الحسن بن هانيء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء، أبو نواس. (١٤٦هـ- ١٩٨هـ/٧٦٣م-٨١٣م) شاعر العراق في عصره. ولد في الأهواز (من بلاد خوزستان) ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها الخصب، وعاد إلى بغداد فأقام إلى أن توفي فيها. كان جده مولى للجراح بن عبد الله الحكمي، أمير خراسان، فنسب إليه. وفي تاريخ ابن عساكر أن أباه من أهل دمشق، من الجند، من رجال مروان بن محمد، انتقل إلى الأهواز فتزوج امرأة من أهلها اسمها جليان فولدت له ولدين أحدهما أبو نواس)

(٣) التصريح ٩٥ / ١، وانظر ابن يعيش ٨٤ / ٣

(٤) القاموس المحيط (كني) ٣٨٤ / ٤.

أحوال الضمير ودلالاتها:

الضمير قسمان: بارز ومستتر:

أما البارز، فهو ما له صورة في اللفظ كتاء (قمت)، وأما المستتر، فهو بخلاف البارز كالمقدر في (قم)، وينقسم البارز إلى متصل ومنفصل، وينقسم المستتر إلى مستتر وجوباً، ومستتر جوازاً^(١)

أما الضمانر المنفصلة فمنها ضمائر رفع هي:

اثنتا عشرة لفظة: "أنا، نحن، أنت، أنت، أنتما، أنتم، أنتن، هو، هي، هما، هم، هنّ.

أنا للمتكلم نحو: {وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى} [طه: ١٣].

ونحن المتكلم مع غيره نحو {بل نحن محرومون} [القلم: ٢٧]، أو للواحد معظماً نفسه كقوله تعالى [نحن خلقناكم فلولا تصدقون] [الواقعة: ٥٧].

أنت بفتح التاء للمخاطب، وأنت بكسر التاء للمخاطبة، وأنتما للمخاطبين، والمخاطبتين وأنتم للمخاطبين، وأنتن للمخاطبات. وهو للغائب، وهما للغائبتين والغائبتين، وهم للغائبين العقلاء، ولا يكون لغير العاقل^(٢) فتقول: هم الرجال ولا تقول: هم الجمال وتقول (هم في الدار) وأنت تعني الرجال، ولا تقول (هم في الدار) وأنت تعني الجمال^(٣).

أما ضمائر النصب فهي أيضاً اثنتا عشرة. وهي: "إيائي، إيانا، إياك، إياك، إياكما، إياكم، إياكن، إياه، إياها، إياهما، إياهم، إياهنّ"^(٤)

وإيائي للمتكلم، وإيانا للمتكلم مع غيره، أو للواحد معظماً نفسه

إياك بفتح الكاف للمخاطب، وإياك بكسر الكاف للمخاطبة، و (إياكما) للمخاطبين والمخاطبتين، وإياكم للمخاطبين وإياكن للمخاطبات.

إياه للغائب وإياها للغائبة، وإياهما للغائبين، وإياهم للغائبين العقلاء، وإياهن للغائبات.

(١) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لجمال الدين عبد الله الأنصاري (١٠٥/١ - ١١٠)

(٢) انظر المقتضب ٢/ ١٨٦

(٣) سيبويه ١/ ٢٣٥

(٤) النحو المصفي، محمد عيد (ص: ١٤١)

وضمائر النصب المتصلة هي بحذف (إيا) من الضمائر المذكورة آنفاً. وضمائر الجر بلفظ النصب المتصلة.

وذكروا أن هذا التنوع في ألفاظ الضمائر، من ضمائر رفع، إلى ضمائر نصب، إلى ضمائر جر، أغناها عن أن تكون معربة. جاء في شرح الرضي على الكافية " (وإنما بنيت المضمرات أما لشبهها بالحروف وضعا .. وأما لعدم موجب الإعراب فيها، وذلك أن المقتضي لإعراب الأسماء توارد المعاني المختلفة على صيغة واحدة، والمضمرات مستغنية باختلاف صيغها، لاختلاف المعاني عن الإعراب، ألا ترى أن كل واحد من المرفوع، والمنصوب، والمجرور، له ضمير خاص؟^(١)

أغراض الضمير:

الضمير يأتي لأغراض كثيرة يكشفها السياق، والقرائن التي تحفه، على أن يكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال، ومنها:

١- الإحالة والربط، وتوجيه المعنى وإفهام المتلقي برجوعه إلى مرجعه.

٢- من أغراض الإيجاز بصورتين:

أ- وأول إيجاز في قلة حروفه، كما أشار إلى ذلك ابن يعيش فقال: "لما كانت المضمرات إنما جيء بها للإيجاز والاختصار، قلّت حروفها"^(٢).

ب- وثاني إيجازه فيما أحال إليه؛ فقد أصبح عوده إلى مرجعه بديلاً عن تكرار اللفظ مرة أو أكثر من مرة؛ لأن التكرار يحدث لدى المتلقي مللاً، فيُفقد المتلقي المقصود من الكلام، فمجيء الضمير يسد مسد المرجع وأبلغ من ذكره، إلا في أحوال تعرف ببلاغة إظهار المضمّر.^(٣)

٣- التفسير، وكثيراً ما يأتي في مخالفة الضمير مرجعه في الظاهر، وقد يجتمع مع الاحتراس.

٤- التوكيد والحصر، كما في ضمير الفصل.

(١) الرضي على الكافية ٣/٢ - ٤، وانظر الأشموني: ١١٠ - ١١١

(٢) شرح المفصل للزمخشري، لابن يعيش (٣٢٧/٢)

(٣) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (٨١/٢-٨٥)، وخصائص التراكيب لأبي موسى

(ص: ٢٤١-٢١٨)

- ٥- لفت الانتباه بالتلوين بين الضمائر وأغراض أخرى تفهم من السياق.
- ٦- وقد يقدم الضمير فيكون مبهما؛ ليتمكن مفسرة في ذهن السامع، بعد انتظاره.
- ٧-الكشف عن مرجعه الذي يفسره الفعل، أو الذي لم يذكر لأغراض بلاغية. لأن المرجع قد يحذف ثقة بأن السامع سيعرفه، أو لعدم الحاجة لمعرفته، أو سترًا على المتحدث عنه، أو احتقارًا لمن الكلام في شأنه.
- ٨- وقد يكون حضور المتحدث عنه في ذهن المتحدث والمتلقي مغنيا عن التصريح بالمرجع، لأنه موجود في الوجدان وإن خلا منه السياق، كضمير المحبوبة الذي يذكره الشعراء من غير تصريح بمرجعه، ادعاء منهم أنه لا يشاركها في هذا الضمير أحد، ولا ينصرف الذهن إلى غيرها.
- وهذه الأغراض ليست على سبيل الحصر بل تتنوع الأغراض بتنوع النظم وما استدعاه، وبتنوع القرائن التي توجه النص حسبما تكون في خاطر المتحدث، ليبين كل كلام عن غرضه فيحكم بفصاحته وبلاغته.

المحور الأول : الأصل عودة الضمير إلى الأقرب:

المراد بهذه القاعدة أن الضمائر - ويلحق بها ما يناسب قاعدة الضمير من أسماء الإشارة وما شابهها - إذا احتمل عودها إلى أكثر من مذكور، فالأصل عودها إلى أقرب مذكور..

من أمثلة رجوع الضمير لأقرب مذكور قوله تعالى: {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} ... الآية [الرعد: ٩، ١١]..

وإذا وقع الخلاف في عائد الضمير فالراجح هو القول الذي يعيد الضمير إلى أقرب مذكور، فإعادته إلى القريب أولى من إعادته إلى البعيد..

وَمِنْ ثَمَّ أَخْرَجَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ: فِي قَوْلِهِ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوجِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ} [الأنعام: ١١٢]؛ لِيُعَوِّدَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ لِقُرْبِهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُضَافًا وَمُضَافًا إِلَيْهِ فَالْأَصْلُ عَوْدُهُ لِلْمُضَافِ؛ لِأَنَّهُ الْمَحْدِثُ عَنْهُ، نَحْوُ:

{وَأِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [إِبْرَاهِيمَ: ٤]. وَقَدْ يَعُودُ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ، نَحْوُ: إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [غَافِرٍ: ٣٧]..

وَاخْتَلَفَ فِي {أَوْ لَحْمٍ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [الْأَنْعَامَ: ١٤٥]، فَمِنْهُمْ مَنْ أَعَادَهُ عَلَى الْمُضَافِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعَادَهُ إِلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ.

وإذا كان في الكلام مضاف ومضاف إليه، فالأصل أن يعود الضمير على المضاف نحو (جاء أخو خالد فآكرمته) أي فآكرمت الأخ وكقوله تعالى: {وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها} [إبراهيم: ٣٤]، فالضمير عاد على المضاف.

وقد يعود على المضاف إليه مع القرينة وذلك نحو قوله تعالى: {فاطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً} [غافر: ٣٧]، فالضمير عائد على المضاف إليه وهو موسى.

وكقوله تعالى: {واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون} [النحل: ١١٤].

ضمير الشأن: من عادة العرب أنهم قد يقدمون على الجملة ضميراً تفسره الجملة، بعده يسمى ضمير الشأن، ويسميه الكوفيون ضمير المجهول، وذلك في مواضع التفضيم والتعظيم يقولون: (هو زيد منطلق) ومعنى: (هو): (زيد منطلق) أي معنى الضمير هو معنى الجملة فيكون المعنى هكذا: الشأن زيد منطلق، أو الأمر زيد منطلق: ويعني بالأمر ما بعده.

جاء في (شرح التصريح): والجملة أما نفس المبتدأ في المعنى، فلا تحتاج لرباط يربطها بالمبتدأ .. نحو: (هو الله أحد) إذا قدر (هو) ضمير شأن، فهو مبتدأ (والله أحد) جملة خبره، وهي عينه في المعنى لأنها مفسرة له، والمفسر عين المفسر أي: الشأن الله أحد. ولا يكون ضمير الشأن لحاضر، وإنما يكون ضمير غيبة مفسراً بجملة بعده خبرية مصرح بجزئها، فإن كان بلفظ التذكير، سمي ضمير الشأن، وإن كان بلفظ التأنيث، سمي ضمير القصة وقد يسمى بهما^(١).

ولا يكون ذلك إلا في مواضع التفضيم، جاء في (شرح المفصل)، اعلم أنهم إذا أرادوا ذكر جملة من الجمل الإسمية، أو الفعلية فقد يقدمون قبلها ضميراً يكون كناية عن تلك الجملة، وتكون الجملة خبراً عن ذلك الضمير، وتفسيراً له ويوحدون الضمير لأنهم يريدون الأمر والحديث، لأن كل جملة شأن وحديث، ولا يفعلون ذلك إلا في

(١) التصريح: ١/ ١٦٢ - ١٦٣

مواضع التفضيم والتعظيم، وذلك قولك (هو زيد قائم) فهو ضمير لم يتقدمه ظاهر، إنما هو ضمير الشأن والحديث، وفسره ما بعده من الخبر وهو (زيد قائم) ولم يأت في هذه الجملة بعائد إلى المبتدأ، لأنها هو في المعنى ولذلك كانت مفسرة له، ويسميه الكوفيون الضمير المجهول، لأنه لم يتقدمه ما يعود إليه..

وجاء في التطور النحوي: ومن خصائص العربية إن مبتدأ الجملة الأسمية المركبة ربما كان ضميرًا للغائب لا علاقة له بالجملة الخبرية، ولا راجع إليه فيها وهذا ما سماه النحويون ضمير الشأن نحو (إنه لا يفلح الظالمون) وأكثر ذلك بعد (إن) كما هو في هذا المثال أو بعد (أن).

ملحوظة: وفائدة هذا التركيب أنه يمكن الناطق من إدخال إن أو أن على الجمل الفعلية نحو (إنه لا يفلح الظالمون)، فهذا مما يشهد بمزية العربية شهادة مبينة، فغيرها من اللغات السامية قد يقدم أمثال إن على الجملة الفعلية، وإن كان موضعها أول الجملة الأسمية فقط. والعربية أهدمت الشواذ وأقصت قاعدة إلحاق إن وأخواتها بالجملة الاسمية فقط، وهي مع ذلك اخترعت وسيلة لقلب الجملة الفعلية إسمية بغير تغيير تركيبها، لكي يمكن إلحاق إن وأخواتها بالجملة الفعلية بواسطة لا مباشرة.^(١)

الصور التي يرجع فيها الضمير:- فالضمير لا بدُّ له من مرجع يعودُ إليه:

- يَكُونُ مُلْفُوظًا بِهِ سَابِقًا مُطَابِقًا بِهِ: نَحْوُ: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ} هود: ٤٢. {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ} طه: ١٢١.

{إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا} النور: ٤٠.

- أَوْ مُتَضَمِّنًا لَهُ: نَحْوُ: {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ} [المائدة: ٨] فَإِنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الْعَدْلِ الْمُتَضَمِّنِ لَهُ {اعْدِلُوا}. {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ} [النساء: ٨] أَي: الْمَفْسُومِ، لِذِلَالَةِ الْقِسْمَةِ عَلَيْهِ.

- أَوْ دَالًّا عَلَيْهِ بِالْإِنْتِزَامِ نَحْوُ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ} [القدر: ١] أَي: الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّ الْإِنْتِزَالَ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْتِزَامًا {فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَجْبِهِ شَيْءٌ}

فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ} [البقرة: ١٧٨] فَ: (عَفِيَ) يَسْتَلْزِمُ عَافِيًا أُعِيدَ عَلَيْهِ الْهَاءُ مِنْ (إِلَيْهِ).

-أَوْ مُتَأَخَّرًا لَفْظًا لَا رُتْبَةً مُطَابِقًا نَحْوَ: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خَيْفَةً مُوسَى} [طه: ٦٧]، {وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [الْقَصَص: ٧٨]، {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرَّحْمَن: ٣٩].

أَوْ رُتْبَةً أَيْضًا فِي بَابِ ضَمِيرِ الشَّانِ وَالْقِصَّةِ وَنِعْمَ وَبِنَسِّ وَالتَّنَازُعِ.

-أَوْ مُتَأَخَّرًا دَالًّا بِالإلتِزَامِ نَحْوَ: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُقُومَ} [الْوَاقِعَةُ: ٨٣]. {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي} [الْقِيَامَةُ: ٢٦]. أَضْمَرَ الرُّوحَ أَوْ النَّفْسَ لِذِلَالَةِ الْحُقُومِ وَالتَّرَاقِي عَلَيْهَا. {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [ص: ٣٢] أَي: الشَّمْسُ، لِذِلَالَةِ الْحِجَابِ عَلَيْهَا.

- وقد يعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة، وذلك كضمير الشأن نحو: {قل هو الله أحد} [الإخلاص: ١]، وكما إذا كان الضمير مجروراً برب، مفسراً بتمييز نحو (ربه رجلا أكرمت) وغير ذلك من المواضع^(١) والقصد من هذا، هو التعظيم والتفخيم^(٢) في الغالب.

- وَقَدْ يُدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ فَيُضْمَرُ: نَفَةً بِفَهْمِ السَّامِعِ، نَحْوَ: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [الرَّحْمَن: ٢٦]. {مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا} [فَاطِر: ٤٥] أَي: الأَرْضُ أَوْ الدُّنْيَا. {وَلَأَبْوِيهَ} [النِّسَاء: ١١] أَي: الْمَيِّتِ، وَلَمْ يَتَقَدَّمَ لَهُ ذِكْرٌ..

- وَقَدْ يَعُودُ عَلَى لَفْظِ الْمَذْكُورِ دُونَ مَعْنَاهُ: نَحْوَ: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ} [فَاطِر: ١١] أَي: عُمْرِ مُعَمَّرٍ آخَرَ..

- وَقَدْ يَعُودُ عَلَى بَعْضِ مَا تَقَدَّمَ نَحْوَ: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ} [النِّسَاء: ١١] إِلَى قَوْلِهِ: {فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً} [النِّسَاء: ١١]. {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ} [البَقَرَةُ: ٢٢٨]. بَعْدَ قَوْلِهِ: {وَالْمُطَلَّاتُ} [البَقَرَةُ: ٢٢٨] فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالرَّجَعِيَّاتِ، وَالْعَائِدُ عَلَيْهِ عَامٌّ فِيهِنَّ وَفِي غَيْرِهِنَّ..

وَقَدْ يَعُودُ عَلَى الْمَعْنَى: كَقَوْلِهِ فِي آيَةِ الْكَلَالَةِ: {فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ} [النِّسَاء: ١٧٦]، وَلَمْ يَتَقَدَّمَ لَفْظٌ مُنْتَى يَعُودُ عَلَيْهِ..

قَالَ الْأَخْفَشُ: لِأَنَّ الْكَلَالََةَ تَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْإِثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ، فَكُنِيَ الضَّمِيرُ الرَّاجِعُ إِلَيْهَا حَمَلًا عَلَى الْمَعْنَى، كَمَا يَعُودُ الضَّمِيرُ جَمْعًا عَلَى (مَنْ) حَمَلًا عَلَى مَعْنَاهَا.

(١) انظر. مغني اللبيب ٤٨٩/٢

(٢) انظر. الرضى على الكافية ٦-٥/٢

- وَقَدْ يَعُودُ عَلَى لَفْظِ شَيْءٍ: وَالْمَرَادُ بِهِ الْجِنْسُ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ، قَالَ الرَّمَحَشَرِيُّ: كَقَوْلِهِ: {إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا} [النِّسَاء: ١٣٥] أَي: بِجِنْسِي الْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ، لِذِلَالَةِ {غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا} عَلَى الْجِنْسَيْنِ، وَلَوْ رَجَعَ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ بِهِ لَوَحَّدَهُ

- وَقَدْ يُذَكِّرُ شَيْئَانِ وَيُعَادُ الضَّمِيرُ إِلَى أَحَدِهِمَا: وَالْغَالِبُ كَوْنُهُ الثَّانِي نَحْوَ: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ} [البَقَرَة: ٤٥]. فَأَعِيدَ الضَّمِيرُ لِلصَّلَاةِ. وَقِيلَ: لِلاِسْتِعَانَةِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ {اسْتَعِينُوا}. {جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ} {يُونُسَ: ٥}. أَي: الْقَمَرَ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي يُعَلِّمُ بِهِ الشُّهُورَ. {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} [التَّوْبَة: ٦٢] أَرَادَ {يُرْضُوهُمَا} فَأَفْرَدَ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ دَاعِي الْعِبَادِ وَالْمُخَاطَبُ لَهُمْ شِفَاهَا، وَيَلْزَمُ مِنْ رِضَا رَّبِّهِ تَعَالَى.

- وَقَدْ يُنْتَهَى الضَّمِيرُ وَيَعُودُ عَلَى أَحَدِ الْمَذْكُورَيْنِ: نَحْوَ: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرَّحْمَن: ٢٢] وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ أَحَدِهِمَا.

- وَقَدْ يَجِيءُ الضَّمِيرُ مُتَّصِلًا بِشَيْءٍ وَهُوَ لِعَیْرِهِ: نَحْوَ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} {الْمُؤْمِنُونَ: ١٢-١٣} يَعْنِي آدَمَ، ثُمَّ قَالَ: {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً} {الْمُؤْمِنُونَ: ١٢-١٣} فَهَذِهِ لَوْلَدِهِ؛ لِأَنَّ آدَمَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ نُطْفَةٍ.

قُلْتُ: هَذَا هُوَ بَابُ الْإِسْتِخْدَامِ، وَمِنْهُ: {لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ} ثُمَّ قَالَ: {قَدْ سَأَلَهَا} [الْمَائِدَة: ١٠١-١٠٢]، أَي: أَشْيَاءَ أُخَرَ مَفْهُومَةً مِنْ لَفْظِ {أَشْيَاءَ} السَّابِقَةِ.

- وَقَدْ يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى مُلَابِسٍ مَا هُوَ لَهُ: نَحْوَ: {إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضَحَاهَا} [النَّازِعَات: ٤٦] أَي: ضَحَى يَوْمِهَا، لَا ضَحَى الْعَشِيَّةِ نَفْسِهَا؛ لِأَنَّهُ لَا ضَحَى لَهَا.

- وَقَدْ يَعُودُ عَلَى غَيْرِ مُشَاهِدٍ مَحْسُوسٍ، وَالْأَصْلُ خِلَافُهُ، نَحْوَ: {وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [البَقَرَة: ١١٧]، فَضَمِيرُ {لَهُ} عَائِدٌ عَلَى الْأَمْرِ، وَهُوَ إِذْ ذَاكَ غَيْرُ مَوْجُودٍ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ سَابِقًا فِي عِلْمِ اللَّهِ كَوْنُهُ، كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمَشَاهِدِ الْمَوْجُودِ.

✓ عود الضمير إلى الجمع:

الأصل في جمع العلاقات أن يعود الضمير عليه بصيغة الجمع ولا يعود عليه بغير ذلك إلا قليلاً فيقال: الهندات ذهبن. قال تعالى: {والوالدات يرضعن أولادهن} [البقرة: ٢٣٣]، وقل أن يقال: الهندات ذهبت^(١).

وأما جمع غير العاقل فالغالب أن يعود عليه الضمير في جمع الكثرة بالأفراد وفي القلة بالجمع^(٢).

✓ الأصلُ تَوَافُقُ الضَّمَائِرِ فِي المَرْجِعِ حَدَرًا مِنَ التَّشْتِيتِ، وَلِهَذَا لَمَّا جَوَزَ بَعْضُهُمْ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدَفِيهِ فِي النِّيمِ {طه: ٣٩} أَنَّ الضَّمِيرَ فِي التَّانِي: لِلتَّابُوتِ، وَفِي الأَوَّلِ: لِمُوسَى عَابَهُ الرَّمَحُوسِرِيُّ، وَجَعَلَهُ تَنَافُرًا مُخْرَجًا لِقُرْآنِ عَنِّ إِعْجَازِهِ، فَقَالَ: وَالضَّمَائِرُ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى مُوسَى، وَرُجُوعُ بَعْضِهَا إِلَيْهِ وَبَعْضُهَا إِلَى التَّابُوتِ فِيهِ هُجْنَةٌ؛ لِمَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنْ تَنَافُرِ النِّظْمِ الَّذِي هُوَ أُمَّ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَمُرَاعَاةِ أَهْمِ مَا يَجِبُ عَلَى المَفْسِّرِ.

وَقَالَ فِي: {لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: ٩] الضَّمَائِرُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالمَرَادُ بِتُعَزِّرِيهِ تُعَزِّرِيهِ دِينَهُ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ فَرَّقَ الضَّمَائِرَ فَقَدْ أْبَعَدَ.

المحور الثاني: آراء علماء اللغة والنحو في مرجع الضمير:

الضمير له أهميته في الكلام لما فيه من الإحالة، والربط، وقد تحدث النحاة عن أنواعه، وعن مرجعه حديثاً نحوياً مع بعض التعليقات، فقعّدوا لذلك بقواعد أنجبها الكلام العربي.

واتفق أهل اللغة على أن كل ضمير يحتاج إلى مرجع يبيّنه، فالضمير لا بد أن يعود إلى مرجع معلوم؛ لأنه معرفة لدلالته على مرجعه دلالة لا لبس فيها ولا تعمية.

فإن كان الضمير لمتكلم أو مخاطب فإن المرجع معلوم بقرينة المشاهدة، لكن ضمير الغائب لما انتفت عنه المشاهدة احتاج إلى مرجع يبيّنه.

(١) انظر. همع الهوامع ١/٥٩-٦٠

(٢) انظر. معترك الأقران ٣/٥٨١، همع الهوامع ١/٥٩

قال " ابن مالك " : الاصل تقديم مفسر ضمير الغائب، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل^(١).

ويتبين من قول " ابن مالك " أن الضمير في الصل للأقرب؛ ولكنه قد يعود إلى خلاف الأصل والظاهر؛ إذا وجدت قرينة تصرفه عن غير الأقرب. ويشرح ابن مالك وله الأنف، فيقول في الشرح: " إذا ذكر ضمير واحد بعد اثنين فصاعدًا جعل للأقرب، ولا يجعل لغيره إلا بدليل من خارج"^(٢).

ويذكر "صاحب الخزانة" : "أن عود الضمير إلى المُبين أولى من عوده إلى التَّيَّان"^(٣).

ومن هنا ينبغي ألا يقال: يجب تقديم المفسر؛ لأن الوجوب يمنع المخالفة، ولكن يقال: الأصل، وهو يعادل الظاهر، وقد يستدعي المقام خلافه؛ لبلاغة أرادها المتحدث البليغ.

ولقد أوجب أهل اللغة مطابقة الضمير مرجعه في العدد، وفي التذكير والتأنيث، وفي النوع، لكن الأسلوب العربي قد يعدل عن المطابقة لغرض منشود

فقال "سيبويه" مبينا مرجع الضمير: " وإنما صار الإضمار معرفة؛ لأنك إنما تضمّر اسما بعد ما تعلم أن مَنْ يُحدِّث قد عرف من تعني، وماتعني، وأنك تريد شيئاً يعلمه"^(٤)

ويصف "تمام حسان" مرجع الضمير وافتقار الضمير له فيقول: " والأغلب في هذا المرجع أن يكون اسماً ظاهراً محدد المدلول، ومن هنا يكون تحديد دلالة هذا الظاهر قرينة لفظية، تعيّن الإبهام الذي كان الضمير يشتمل عليه بالوضع؛ لأن معنى الضمير وظيفي، وهو الحاضر أو الغائب على إطلاقهما، فلا يدل دلالة معجمية إلا بضميمة المرجع، وبواسطة هذا المرجع يمكن أن يدل الضمير على معين"^(٥).

لكن هذا الأصل قد تأتي قرينة تخالفه، فإن لم تأت قرينه وتعددت المذكورات التي يصلح عود الضمير إليها فإن "ابن مالك" يذكر لذلك قاعدة فيقول في الشرح: " إذا

(١) انظر. شرح التسهيل لابن مالك(١٥٦/١)

(٢) شرح التسهيل لابن مالك(١٥٧/١)

(٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدادى،(٢٦/٩)

(٤) يُنظر. الكتاب ٦/٢

(٥) اللغة العربية معناها ومبناها، لتمام حسان عمر (١١١/١)

ذكر ضمير واحد بعد اثنين فصاعدًا جُعل للأقرب، ولا يجعل لغيره إلا بدليل من خارج" (١).

وقد يسلم الضمير من الإبهام بأحد أمرين:

- ١- أن يكون مفسره ومرجعه واحدًا مطابقًا.
 - ٢- أن يسبقه أكثر من مفسر ولكن في السياق قرينة تقوي واحدًا من المفسرات.
- وحرّي بنا في هذا السياق أن نذكر أن هناك من الضمائر ما لا يحتاج إلى قرينة لفظية؛ لأن قرينة المشاهدة كافية، وذلك في ضمير المتكلم والمخاطب، أما ضمير الغائب فمفتقر إلى مرجع وقرينة تبينه.**

وقد قال "السيوطي" في هذا الشأن: " ضمير المتكلم والمخاطب يفسرهما المشاهدة" (٢)، وأما ضمي الغائب فعارٍ عن المشاهدة فاحتج إلى ما يفسره، وأصل المفسر الذي يعود عليه أن يكون مقدمًا؛ ليلم المعنى بالضمير عند ذكره بعد مفسره والأولى ان يكون الأقرب، نحو لقيت زيدًا، وعمراً يضحك، فضمير يضحك عائد إلى عمرو، ولا يعود إلى زيد إلا بدليل.

فالمفسر الذي صرح بلفظه قد يدخله اللبس إذا كان معه أكثر من مفسر، ولم تكن هناك قرينة تعين على تعيين مرجع الضمير؛ لأن جميع المفسرات صالحة لعود الضمير إليها، ولكن يزول اللبس مع وجود قرينة أو بالقول بعود الضمير على الأقرب.

وبذلك فكل ضمير يحتاج إلى مفسر، لكن هذا المفسر قد يصرح بلفظة، وقد لا يصرح بلفظه، غير أنه يفهم بقرينة علمية أو ذهنية، أو بقرينة لفظية إذا كان مفسر الضمير مصدرًا مفهومًا من فعل مذكور، والأشهر في المفسر أن يسبق الضمير؛ ولكنه قد يتأخر عنه لغرض بلاغي يفهم من السياق.

(١) شرح التسهيل لابن مالك ١/١٥٧

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي: ص ١٨٠

مسائل عود الضمير

أولاً - إن الأصل في الضمير أن يعود على الاسم المتقدم، نحو قوله تعالى: {والشعراء يتبعهم الغاون} [الشعراء: ٢٢٤]، وقوله: {وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن} [البقرة: ١٢٤].

ثانياً: وقد يعود على متأخر في اللفظ، متقدم في الرتبة، وذلك نحو قوله تعالى: {فأوجس في نفسه خيفة موسى} طه: ٦٧ ، ونحو قولهم {في بيته يؤتى الحكم} فالضمير في الآية عاد على موسى، وهو متأخر لفظاً متقدم رتبة وكذلك المثل.

ثالثاً: قد يستعني عن المفسر في اللفظ بما يدل عليه جسيماً.^(١)

(١) همع الهوامع ٦٥/١

الخلاصة: نتائج البحث

وقد انتهت هذه الدراسة إلى العدد من النتائج جاء من أهمها: في قاعدة الضمير: (الأصل إعادة الضمير إلى أقرب مذكور ما لم يرد دليل بخلافه) وقد عود الضمير إلى البعيد وليست على إطلاقها، ومن الأسباب التي تخرج النص عن أصل القاعدة: أن يكون البعيد محدث عنه، أو عدم صلاحية عوده للقريب.

- وعلى ذلك فالحكم على الضمير نابع من مفسرّه، فقد يدخله الإبهام في حالتين:

الحالة الأولى: أن يسبق الضمير أكثر من مفسر مطابق، وليس في السياق قرينة تقوي أحد المفسرات، فيكون اللبس في مرجع الضمير لعدم وجود قرينة؛ ولأنه جاء بعد أكثر من مفسر، غير أن ذلك فطن له ابن مالك في قوله السابق الذي يقوله فيه: "إذا ذكر ضمير واحد بعد اثنين فصاعداً جعل للأقرب، ولا يجعل لغيره إلا بدليل من خارج"^(١). وعلى هذه القاعدة سار اللغويون والمفسرون.

الحالة الثانية: أن يكون مرجعه واحداً؛ لكنه لم يطابقه بالجنس أو بالعدد أو بالعقل أو عدمه، كالضمير الذي يعود على الجماد والعجموات، ولقد نص النحاة على المطابقة، فيذكر "عباس حسن": "أن التطابق واجب بين ضمير الغائب ومرجعه"^(٢).

وإذا كان التطابق هو الأصل؛ في القرآن الكريم وكلام العرب شواهد خالفت الأصل قلم يطابق الضمير فيها مرجعه، وذلك لعلّة بيانية وسر بليغ، أراد صاحب الكلام البليغ.

وقد بين النحاة أن الضمير يعود على الأقرب دائماً إلا إذا كان في السياق قرينة صارفة له عن الأقرب، يقول "عباس حسن": "وإنما يعود الضمير على الأقرب في غير صورتين:

إحدهما: أن يوجد دليل يدل على أن المرجع ليس هو الأقرب؛ مثل: حضرت سعاد وضيعة فأكرمتها.

والثانية: أن يكون الأقرب مضافاً إليه؛ فيعود الضمير على المضاف... إلا إن وجد دليل يدل على أن المقصور بالضمير هو المضاف إليه لا المضاف"^(٣).

ثالثاً: إستيقاظ العقل إلى إثارة مخزونه المعرفي وتأمّل القرائن الثقافية/ التداولية.

رابعاً: إثراء وجوه الدلالة .

(١) شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (١/١٥٧)

(٢) النحو الوافي : لعباس حسن، (263-262/1)

(٣) النحو الوافي ،لعباس حسن(١/٢٦١-٢٦٢)

المصادر والمراجع:

- أساس البلاغة، محمد باسل الزمخشري، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى.
- الأصول النحوية : ابن السراج أبو بكر محمد بن سهل(ت٣١٦هـ) تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.
- البسيط في الشرح جمل الزجاجي، ابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد القرشي الأشبيلي، ط١، تحقيق: عياد بن عيد الثبتي، ١٩٨٦، دار الغرب الإسلامي.
- (الكتاب)، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام هارون، ١٩٩٧، الهيئة العامة للكتاب، مصر.
- تجليات مفاهيم التداولية في التراث العربي، رسالة ماجستير، ٢٠١٣م - ٢٠١٤م.
- التداوليات وتحليل الخطاب، جميل حمداوي، لا ط، لا ت، لا سنة.
- التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- التداولية من أوستين الي غوفمان، فيليب بلانشية، تر: صابر الحباشة، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا، ٢٠٠٧م.
- التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: عبد الحميد هندواوي، ١٩٩٧، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت.
- الدلالة والنحو، د. صلاح الدين صالح حسنين، توزيع مكتبة الآداب، الطبعة: ١، عدد الأجزاء: ١. عدد الأوراق: ٣٠٧، ٢٠٢٠م
- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: الأستاذ محمود محمد شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٤م.
- شرح الجمل الزجاجي: علي بن مؤمن بن محمد بن علي بن عصفور الأشبيلي أبو الحسن(ت٦٦٩هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩.
- شرح المفصل، ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش، (د.ت)، مكتبة المتنبي، القاهرة.
- شرح تفصيل الزمخشري: يعيش بن علي بن يعيش بن أبي سرايا محمد بن علي، أبو البقعة، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وابن

- الصانع (ت. ٦٤٣هـ) قدمه له: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- شرح كافية بن الحاجب، الأستراباذي، رضي الدين الأستراباذي، تحقيق: إميل يعقوب، ١٩٩٨م، ط١، دار الكتب العلمية بيروت.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم، ط١، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، ١٩٨٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- كتاب سيويه أبي بشر عمر بن عثمان بن قنبر (ت. ١٨٠هـ) الطبعة الأولى لبولاق ١٣١٧هـ، وطبعة هارون عالم الكتب، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الكشّاف، للزمخشري، شَرَحَهُ وَضَبَطَهُ وَرَاجَعَهُ: يوسف الحمّادي، طبعة مكتبة مصر، القاهرة، بلا تاريخ.
- المزهر في علوم اللغة، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشافعي السيوطي، (د.ت)، تحقيق: محمد أحمد جاد الله وعلى محمد البجاوي ومحمد أبو فضل إبراهيم، دار إحياء الكتب، القاهرة.
- معاني النحو، لـ د. فاضل صالح السامرائي، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري المصري، ١٤٢٨، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، القاهرة.
- مقاييس اللغة، محمد هارون ابن فارس، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩١م.
- همع الهوامع مع شرح جمع الجوامع في علم العربية، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشافعي السيوطي، ١٩٨٨، دار المعرفة، بيروت.

